مقاربة لسان القرآن لفهم صورة الآخر في السياق الإسلامي

سوسن الشريف (1)

مقدمة

إن الإسلام كدين سماوي لم يتغير، ولم يتبدل، أما الذين تغيروا وتبدلوا وباعدهم حاضرهم عن وأمسهم، وأضاعوا القرآن وضلوا سواء السبيل، فهم المسلمون اتباع ذلك الدين الذي كان نظامًا وعقيدة، عندما فهموه مجرد شعائر تقليدية، ومظاهر عادية لا جدوى فيها ولا عطاء. لم يكد الإسلام يطلق سراح الإنسان، ويحطم أغلاله، حتى انبرى يهبه الحريات كلها ويدافع عن هذه الحريات كلما هُددت، وثاني الحريات التي كانت من عطاء الإسلام هي حرية الفكر والمعتقد. فالإسلام لا يرفض طرق التفكير الخاصة، بل يدعو إلى الاحتكاك بالآراء وسعة الإطلاع وتنوع الثقافات، وهو يعتبر الفكر إرثًا إنسانيًا مشتركًا بين الأمم، وهذا ما جعل العرب يقتبسون من حضارات الأمم السالفة والمعاصرة، وثقافتها المتنوعة ما يجدونه صالحًا لبناء مجتمعهم الجديد. وأكبر شاهد على حرية الفكر في الإسلام تعدد المذاهب السياسية والفرق الدينية، ومدارس الاجتهاد، ومبدأ الشورى كان ركيزة قوية من ركائز الدولة الإسلامية، إذ كان للرأي الأصلح دائمًا الكلمة النافذة. إن الإسلام في كافة مظاهره في عقائده، وعبادته، ونظمه ومعاملاته لم يكن لطائفة معينة أو لجنس خاص، بل كان يطالب الإنسانية كلها بعقيدة وأسلوب في العمل، ولا يفاضل بين الناس إلا بمقدار ما يقدمون من أجل العقيدة، وبنوعية ما يعملون طبقًا لهذه العقيدة. إن الذين يخلقون اكذوبة أن الإسلام هو القومية العربية هم المستعمرون، فالإسلام لم يكن في يوم الأيام دين العرب فقط، لاعتبار واحد وهو أن الله رب العالمين حسب المفهوم الإسلامي، والإسلام في كافة مظاهره

---

(1) باحثة مصرية حاصلة على الدكتوراه في التربية، خبيرة معتمدة من اليونسكو في بناء مدن التعلم، باحثة مشاركة في مركز العلوم الاجتماعية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، مستشارة للعديد من الجمعيات، حائزة على جائزتي التأليف والنشر من جمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين سنة 2006-2005، عن كتاب "يوتوبيا البحث العلمي: الحرية الأكاديمية". من بين منشوراتها العلمية، نذكر: "المشاركة السياسية للنساء في مصر بين الإدماج والاستبعاد" (مؤسسة المرأة الجديدة، 2016)، و"الحركة النسوية الاسلامية وعلاقتها ببعض الآراء الفقهية في مصر "رؤية تحليلية نقدية"" (دار روافد، 2015).

لم يحارب الأديان التي سبقته، بل دعاها إليه للمجادلة والبحث بروح من الفهم العميق، والسماح، وسعة الصدر، وحسن الخلق. ووضع القاعدة المثلى للسلوك العقائدي الإسلامي الذي لا يؤمن بالإكراه ويقدس العقل، وأكد أن محمدًا ليس إلا نبيًا يوحى إليه كما أُوحيَ للنبيين من قبله، ولو أن الإسلام أقر للعرب بشيء من الفضل أو السابقة لرفع قدرهم، وأجل شأنهم، ولكنه جعلهم مسئولين عن الفكرة، وتنفيذها كغيرهم من الناس. ولا تفضيل لواحد من بني البشر على غيره إلا بالتقوى، وقد فرض الله فروضه على البشر دون النظر إلى عروبتهم وأعجميتهم، ودون التفريق بين ألوانهم واجناسهم.(1)

لم تتح الفرصة لليهودية والمسيحية لإقامة علاقات مع دول معادية، بينما الإسلام كان على علاقات دائمة مع أمم وديانات مختلفة تارة مسالمة، وتارة معادية، وهذا اقتضى تشريع أخلاقي لظروف السلم والحرب تضمن القرآن الكريم مبادئه الأساسية. ومن هذه المبادئ أن الحرب الشرعية لا تقوم إلا من أجل دفع العدوان، ويجب أن تتوقف بمجرد انتهائه. وهناك بعد ذلك المبدأ الذي يحترم المواثيق المبرمة مع العدو مهما كانت فرص عقدها غير متكافئة، فالمعاهدة الموقعة بين الأطراف واجبة الاحترام حتى لو كانت في غير صالحنا. هذا بخلاف القواعد التي حددتها السنة والتي نجحت إن لم يكن في القضاء على هذه الآفة، فعلى الأقل في التخفيف من نتائجها القاسية. ولعل صلح الحديبية الشاهد الأقوى على قبول المعاهدة مع المشركين، وتأجيل حج الرسول والصحابة في هذا العام، الأمر الذي اغضبهم كثيرًا، لكن حكمة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، واحترامه للعهود المواثيق مثال حي يجب السير على خطاه.(2)

جرت العادة أن تترجم كلمة إسلام إلى الفرنسية بكلمة خضوع لله، أو بكلمة استسلام، وهي كلمة في غير موضعها. المؤمن ليس مستسلمًا لله، إن فيه اندفاع الحب نحو الله، حركة اعتناق لما يطرحه الله عليه، لأن الله يرفع الإنسان إليه بالوحي. هذا السمو بالإنسان يخلق لديه شعورًا بالامتنان إزاء خالق أغدق بالنعم على المخلوق، هناك إذن علاقة طاعة ممتلئة بالحب والاعتراف بالجميل، تقوم بين الخالق والمخلوق. إن كلمة «إسلام» اشتقاقًا في اللغة العربية، تعني تسليم شيء إلى أحدهم، والمقصود هنا أن يسلم المرء شخصه بكليته إلى الله. ينبغي أن نتحاشى استخدام كلمة إسلام بصيغة

---

(1) مصطفى صادق الرافعي، الإسلام انطلاق لا جمود، (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، 1966).
(2) محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليل مقارن، مرجع سابق.

مفتوحة لوصف مجتمعات بينها فروق كبيرة، ويجب أن نشجع إدخال النظرة النقدية العلمية لكل مجتمع مسلم إلى ذاته، وبذلك سيتحرر الإسلام، كدين من المشكلات المسئوليات التي تدخل في نطاق مسئولية الفاعلين الاجتماعيين، ولا تتعلق بالله.[1]

يفرق أركون بين لحظة الإسلام القرآني، ولحظة الإسلام الرسمي الذي جاء بعد تشكل الأنظمة اللاهوتية الاستعبادية، وكانت أكثر ضيقًا وأقل انفتاحًا من الإسلام القرآني، وهذا ما حدث في المسيحية أيضًا. مما يفرض على المثقف المسلم اليوم أن يحارب على جبهتين: جبهة الاستشراق الذي يمارس العلوم الاجتماعية بطريقة وصفية باردة، وجبهة حملات النيل من أصالة الشخصية الإسلامية وهويتها. إن صورة المسلم ليست واضحة للآخرين، فحقيقته محجوبة عن نظرهم، كرامته، فضيلته، أخلاقه، عزته، والمسلم لا يستطيع أن يؤدي رسالته في هذا الوقت، إلا إذا تحققت لرسالته كل شروط الإقناع وكل شروط الاقتناع، ولا يمكنه أن يغير شيئًا في الخارج إن لم يغير شيئًا في نفسه. قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: 11) وهذه ليست آية فقط، بل علم، قانون وضعه الله، سنة من سننه التي تسير عليها حياة البشر. فيجب على كل مسلم أن يحقق بمفرده شروطًا ثلاثة:

1) أن يعرف نفسه،

2) أن يعرف الآخرين، وألا يتعالى عليهم، أو يتجاهلهم، ويتجاهل ما في نفوسهم، ولا يتسامى بدعوى أنه أعد للجنة والتكريم.

3) وأن يعرف الآخرين بنفسه، لكن بالصورة المحببة، بالصورة التي أجريت عليها كل عمليات التغير بعد التقنية والتصفية من كل رواسب القابلية للاستعمار والتخلف وأصناف التأخر والتخلف. ويجب عليه أولًا أن يقوم بهذه التصفية حتى يقدم صورة مقبولة محبة، بوصفها عينة من العينات البشرية التي يصنعها الإسلام.[2]

يعرض القرآن دعوة الإسلام بطريقته المنطقية لا على أنها دعوة محمدية مستقلة تنافس الديانات الأخرى وتنازعهما الحقيقة، وإنما يقرر أن المسلم هو من يؤمن في

(1) محمد أركون، نافذة على الاسلام، ترجمة صياح الجهيم، (بيروت: دار عطية لنشر، 1996).
(2) محمد أركون، أين هو الفكر الإسلامي المعاصر، ترجمة هاشم صالح، ط2، (بيروت: دار الساقي، 1995).

نفس الوقت بموسى وعيسى وجميع رسل الله، ويوقرهم بغير تمييز بينهم، كما يؤمن بمبادئهم جميعًا. أي أنه يستسلم لله ولإرادته التي أعلنت متتابعة ألسنتهم، إن القرآن يدعو إلى العودة إلى الوحدة الدينية الأصلية التي يستجيب لها ويعتز بها ذوو النفوس السامية.[1]

لا يوجد أبلغ من آيات القرآن الكريم لتؤكد على خلق المعروف مع الآخر المختلف في العقيدة وعدم الإكراه على الدين، ففي الآية الكريمة ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: 256) تأكيد على حرية الإنسان في اختيار عقيدته، وليس على أي أحد أيًا كان موقعه أو سلطته أن يجبر أحد على اعتناق الإسلام. بل من واجبات المسلم احترام وحماية المختلف في العقيدة، وأن يكفل له ممارسة أمنة لشعائر عقيدته ومعتقداته، وأمر الإيمان والمحاسبة بين العبد وربه، وليس لأي فرد دخل به. وفي الآية ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: 99) سؤال تعجبي استنكاري لإجبار الناس على الإيمان، وآية ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: 6) تؤكد على ذات المعنى، ولعل الله يذكرنا بأهمية هذا المبدأ في أكثر من موضع في القرآن الكريم، بل ولما للأمر أهمية فقد وردت في أول الكتاب في ثاني سورة بعد الفاتحة، وللتذكير والتأكيد في أخر القرآن الكريم في سورة الكافرون.

الأمر الصريح بعدم الإكراه على الدين يلزم بالتعامل مع غير المسلمين بالحسنى، والجدال معهم يكون بالتي هي أحسن، أي بأفضل الطرق وأحسنها، بعيدًا عن أي إيذاء، بل وربط الدعوة إلى الدين بالحكمة والرفق واللين، والكلم الطيب، لأن الأمر كله في النهاية يرجع إلى الله، هو أعلم بمن خلق، فيقول عز وجل: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النمل: 125). وينهى جل شأنه عن الغلظة في القول، فيقول تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: 159)، وهذه الوصايا والتعاليم الربانية، للقول الحسن والحكمة والرحمة واللين ورقة القلب ما هي إلى ترجمة للتعامل بالمعروف.

(1) محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليل مقارن، مرجع سابق.

وفي هذا السياق تبحث الورقة الحالية في فهم صورة الآخر وسبل التعايش معه، من خلال الكشف عن الفروق بين الفهم البشري والتأويلات للتعاليم الإلهية المنزلة في الشريعة، وما بين مبادئ وأساسيات الشريعة ذاتها، بالاستناد إلى «لسان القرآن» كمدخل لإعادة قراءة وفهم القرآن الكريم.

تنقسم الورقة إلى ثلاث مباحث رئيسية: الأول: يناقش منظومة الأخلاق في القرآن الكريم، الثاني: يناقش مقاربة لسان القرآن، والثالث: يعرض بعض الآيات التي تناولت تنظيم العلاقة مع غير المسلمين، من خلال المفاهيم القرآنية «التي هي أحسن، لا إكراه في الدين، القسط ».

أولًا: الأخلاق وتعاليم الدين الإسلامي

يشكل الخلق الإسلامي جزءً لا ينفصل عن الدين الذي هو في نظر السنة طريقة التعامل مع الآخرين، ولن نحكم إلى أي مدى هو مطبق ومحترم في أيامنا، فقد قال «محمد عبده» أن حياة المسلمين أصبحت في الوقت الحاضر مظاهرة ضد دينهم. فقد يكون ضعف الإيمان وانحرافاته مماثلة في الواقع لما قد تكونه الرذائل المناقضة للفضائل المتعلمة من الله والنبي محمد، وهي رذائل تسيئ إلى المسلمين، فساد العقيدة والجهل الفكري، والظلم والاستبداد، والخيانة، والغش والمخادعة حتى حيال الله. ويعتبر المنظور الخلقي العام تبعًا لجوهر الدين نفسه، وإذا كانت المحبة أهم الفضائل الإلهية في المسيحية، فإن الأفضلية في الإسلام هي الإيمان. فالسبيل في المسيحية إلى الخلاص هو الزهد، وفي الإسلام السبيل في التقى والتقيد بالقانون، باعتبار أن الخلاص للقاعدة رفع المؤمن معنويًا وروحيًا، ويبدو أن هذا الفرق الجوهري هو السبب في عدم فهم الغرب للخلق الإسلامي الذي قد يخيل لهم أنه أميل إلى التمسك بالشكليات، ولما كان المسيحي يعتنق دين المحبة أي دين التضحية، فإنه يتوهم اكتشاف نوع من الحصر في نظام الوصايا العملية القرآني. وتختلف نظرة المسلم اختلافًا شديدًا مع تلك النظرة، فهو يرى أن أساس حياته الخلقية برمتها كامن في قرار حر وعقلاني باحترام القانون، لا في بذل جهد فرداني. وبالإجمال تبقى قضية الفرد الكبرى أن يبحث عن اندماجه في النظام الأكمل للعالم، وأن يحظى به، فالخير هو التوازن، والشر هو عدم التناغم، وهما

مثبتان محددان في القرآن، يهدفان إلى حفظ حقوق الله وحقوق الإنسان، وهكذا ينبغي أن يجد كل إنسان نصيبه في التناسق.[1]

لم يأت القرآن فقط لتذكير الناس بالعقل السليم، ولإعادة الخلق القويم بينهم، فليست رسالته الوحيدة هي تعزيز الرسل السابقين والربط بين دعواتهم بسياج الوحدة والتصديق عليها، بل القرآن يقصد الإنسان حيث يكون وإلى أي جنس ينتمي، وذلك حين يوجه نداءه إلى العقل والذوق السليم والشعور الإنساني النبيل. وإذا كان القرآن بعيدًا عن أي عامل خارجي قد أثر بصفة دائمة على عقول جد مختلفة فلابد أن يكون ذلك راجعًا إلى ما له من جاذبية خاصة بتوافقه الكامل مع أسلوب الناس الفطري في التفكير والشعور. وباستجابته لما تتطلع إليه نفوسهم في شؤون العقيدة والسلوك، وبوضعه الحلول الناجعة للمشكلات الكبرى التي تقلق بالهم. وبمعنى آخر لابد أنه ينطوي على ما يشبع حاجاتهم إلى الحق والخير والجمال بما يجمع من صفات العمل الديني والأخلاقي والأدبي في آن واحد. ويستند القرآن في أغلب الأحيان على الشعور العام القادر على التمييز بين العدل والظلم وبين الخير والشر ليؤسس نظامه الخلقي، ويعتمد عليه في تعريف فكرته العملية، والتي تدور في معظمها حول المعروف والفعل الحسن. ونظرًا لأن الحاسة الطبيعية التي يلجأ إليها القرآن ليست بنفس القدر عند كل الناس، ولا بالقوة والفاعلية لتلزمهم بالخضوع لقاعدة السلوك، فقد اقتضى الأمر وضع منهج كامل في التربية، وبجوار الحاسة الخلقية وهب الله الإنسان الذكاء والعقل، فإن غاب هذا الشعور الحيوي عن الخير والشر، تبقى فكرة الواجب العام أو المتعارف عليه عالميًا، وهذا هو جوهر مفهوم المعروف.[2]

تبدو أصالة القرآن في الطريقة التي سلكها لتقديم تلك الدروس المتنوعة، إذ صاغ تنوعها في وحدة، وساقها على اختلافها في إطار من الاتفاق، وحقق التعادل في ميزانها. إن القرآن حين يعرض نظريته عن الحق والفضيلة، لا يكتفي بإثارة الذوق السليم، وبالحث على التفكير والتأمل، بل إنه يتولى بنفسه التدليل على ما يقدم. فتعليم الناس

(1) محمد الطاهر بن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985).
(2) محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليل مقارن، مرجع سابق.

واجباتهم الحقيقية من أكبر المهام التي نهض بها القرآن على أكمل وجه، ومع كونها الهدف الرئيسي لتعاليمه، فقد اضطلع القرآن إلى جانبها بمهمة أخرة نظرية، فقدم لنا العناصر اللازمة لتتكون لدينا رؤوية واضحة صحيحة عن الأخلاق، فالإلزام والمسئولية والجزاء والنية والجهد هي الأركان الرئيسية لكل نظرية أخلاقية تعرف قدر نفسها.[1]

في كتب الأديان الكبرى اشارات صريحة إلى العقل أو إلى التمييز، لكنها تأتي عرضًا غير مقصودة، ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية، بل تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة، وتتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحث فيها المؤمن على تحكم عقله، أو يلام على إهماله. ولا يأتي تكرار الإشارة إلى العقل بمعنى واحد من معانيه التي يشرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة، بل هي تشمل وظائف الانسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها، وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف.[2]

الواجب على كل فرد ليس في إكراه الغير على الإيمان بدينه، وإنما في الشرح والتوضيح والإقناع بكل ما يعتقد أنه حق، وللغير أن يؤمن بما يسمع أو لا يؤمن، وعليه ألا يضيق ذرعًا بحرية المؤمنين في القيام بشعائرهم وإعطائها ما تستحق من احترام. فالمبدأ القانوني الذي يحدد العلاقة بين جماعة المسلمين وبين الأمم والأديان الأخرى هو المبدأ الذي يطلق عليه بصفة عامة اسم «التسامح». إن الشعوب التي لا تعتنق الإسلام وإنما تخضع سلميًا لتشريعه المدني لا يجب فقط أن تتمتع بالتسامح، وأن تصان أراضيها وأفرادها (أشخاص، وأموال، وديانات، وتقاليد)، ولكن الإسلام يأخذ على عاتقه أن يوفر لهم هذه الحريات على قدم المساواة مع المسلمين أنفسهم. أما الذين لا يقبلون العقيدة الإسلامية ولا التشريع الإسلامي، فإن القرآن لا يطالبهم إلا بموقف مسالم من جانبهم ليوفر لهم في مقابل ذلك معاملة كريمة أساسها العدل والبر.[3]

(1) المرجع سابق.
(2) عباس محمود العقاد، التفكير فريضة إسلامية، (بيروت: دار النفائس، 2012).
(3) محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليل مقارن، مرجع سابق.

إن التسامح في الإسلام وليد إصلاح التفكير ومكارم الأخلاق الذين هما من أصول النظام الاجتماعي، وأن الفكر الصحيح السليم يسوق صاحبه إلى العقائد الحقة، ويكسب صاحبه الثقة بعقيدته والأمن عليها، ويتلقى مخالفات المعارضين بنفس مطمئنة، وحجة قوية، ولسان طلق. لقد أسس الإسلام للتسامح أسسًا راسخة، وفصل ما بين واجب المسلمين مع بعضهم البعض، وما بين حسن معاملتهم مع من تقتضي الأحوال مخالطتهم من أهل الملل الأخرى. وقاعدة هذه الأسس هي القاعدة الفكرية النفسية وهي أن القرآن وكلام الرسول (صلى الله عليه وسلم) يعلم المسلمين أن الاختلاف ضروري في جبلة البشر، وأنه من طبع اختلاف المدارك وتفاوت العقول في الاستقامة، فإذا تخلق المرء بهذا المبدأ يصبح النظر إلى الاختلاف نظرة تتفاوت فيها المدارك بين الإصابة والخطأ، لا نظرة عدوانية غاضبة. فالإسلام دعا الناس إلى الوحدة في دين الفطرة، وأراهم محاسنها، ولكنه لم يدع اتباعه إلى معادة من أعرض الدخول في تلك الوحدة واختار لنفسه ملة أخرى. ومن أسس التسامح حسن معاملة المخالفين في الدين، ليهذب من الاحساس الذي ينشأ عن المخالفة، حتى لا بتجاوز اعتقاد المسلم كمال حاله إلى أن يكون عدوًا وبغيضًا لأهل الأديان المخالفة له في العقيدة. إن التسامح يظهر مفعوله في المواقع التي يظهر فيها التعصب، والتعصب له مظهران: أحدهما -وهو أقواهما- الانفعالات الناشئة عن التخالف الديني بين فريقين، في حالة ممارسة أحدهما طقوسه الدينية التي لا يعتادها الطرف الآخر، وتكون معاملات أو مظاهر عارضة. والمظهر الثاني، في المعاملات الدنيوية التي لا علاقة لها بالانفعالات الدينية، وهي المعاملات التي تظهر بشكل دائم نتيجة التجاور والتعايش في الحياة جنبًا إلى جنب. وأما في المظهر الأول فقد أوصى الإسلام بالتغاضي عند مشاهدة مزاولة طقوس دينية مخالفة، وأما في المظهر الثاني فقد أمر الإسلام بالتسامح في مختلف الأحوال.[1]

إن الدعوة إلى التسامح أصبحت ملحة وشائعة، في مجتمعاتنا الخاضعة لصراعات عرقية، أو ثقافية، أو سياسية، ويزيد من تفاقم هذه الصراعات، وفي ظل هذه الصراعات يميل الناس إلى الاتجاه نحو التراثيات الفكرية الراسخة كي يعثروا فيها على أسس تحترم هذا المفهوم (أي مفهوم التسامح) وتبرره. ولا نعلم فيما إذا كان هذا المفهوم يعني فضيلة أخلاقية أو وازعًا فكريًا أو يلبي حاجة سياسية ما داخل المجتمعات

(1) محمد الطاهر بن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، مرجع سابق.

المتعددة الأجناس والطوائف. التسامح تلبية لحاجة اجتماعية ولضرورة سياسية ملحة في لحظات الصراع الأيديولوجي، كما أنه عبارة عن إعادة نظر بالقيم الخاصة بكل فئة اجتماعية على حدا. وترسيخ التسامح يقتضي شرطين في كل زمان ومكان: الأول، هو إرادة الفرد في التسامح، والثاني، هو ارتباط هذه الإرادة الفردية بالإرادة السياسية الجماعية على مستوى الدولة. ويمكننا القول بأن هاتين الإرادتين كانت معدومتين في الغالب وحتى الآن، ولكن انعدام التسامح يعود إلى أسباب تاريخية واجتماعية وأنثربولوجية أكثر مما يعود إلى صمت النصوص الدينية أو نقص الفكر الإسلامي. ومن هنا نجد أن طرح مشكلة التسامح من خلال المنهج التاريخي والسوسيولوجي يختلف تمامًا عن طرحها من خلال. فالتسامح من المنظور المثالي والتقليدي المعروف هو فضيلة جوهرانية وثابتة يتميز بها الأشخاص أو بعض الأديان أو بعض الشعوب.[1]

ثانيًا: لسان القرآن «الخطاب الإلهي»

من أهم خواص القرآن أنه نص مطلق يستطيع الناس أن يفهموه في كل عصر، وفي كل مكان، بطريقة تجعلهم قادرين على معالجة مشكلاتهم انطلاقًا من هديه وتوجيهه، مستفيدين من اللغة التي نزل بها وتطورها الدلالي، واتصال الفهم والتأويل والتفسير. فكيف يزعم أهل عصر من العصور أنهم فهمهم البشري للقرآن العظيم هو الأوحد والأصح، ويعارضوا هيمنته المطلقة وإعجازه الدائم المستمر، وحولوه إلى جانب من جوانب تراثهم يأخذ الناس منه ويتركون، وقد أعلن القرآن الكريم في مواضع عديدة هيمنته على كل ما عداه، ومن المحال أن تهيمن عليه أفهام البشر في أي عصر من العصور. والقرآن العظيم لا يعطي نفسه إلا لقارئيه المتدبرين، والقارئ الذي يستطيع أن يأخذ من القرآن العظيم بعض كنوزه ومكنوناته، هو ذلك الذي ينطلق من القراءة للقرآن ابتداء باعتبار القراءة منهجية هذه الأمة، تنطلق منها مستخدمة التدبر والتأمل والتذكر والفهم والفقه واللغة والأثر كلها كوسائل لفهم القرآن الكريم، ثم ينطلق بعد ذلك بكل هذه الوسائل لقراءة الكون المفتوح الذي يشكل وسيلة أخرى من وسائل الفهم والإدراك للقرآن الكريم.[2]

(1) محمد أركون، أين هو الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق.
(2) محمد أبو القاسم حاج أحمد، قضايا إسلامية معاصرة منهجية القرآن المعرفية، (بيروت: دار الهادي، 2003).

يقول «طه العلواني» القرآن الكريم مثل الكون كلما تطورت مناهج البحث فيه، والتدبر لآياته، تنكشف مكنونات جديدة، وهو أول من تناول مصطلح «لسان القرآن» وعنيَ فيه بدراسة الدلالات اللغوية لمفردات القرآن الكريم. فيؤكد على أن لسان القرآن يُخرج اللفظ عن كونه مجرد لفظ، لأنه يحمل اللفظ طاقات دلالية لم يعهدها أحد في تلك الألفاظ من قبل نطق القرآن بها، فهو يمنحها معاني ودلالات متجددة ومتنوعة، وهو الفرق بين الخطاب حين يكون إلهيًا وبين الخطاب البشري. واللسان القرآني متميز عن اللغة العربية، حيث استوعب فنونها وآدابها وبلاغتها وسائر مزاياها بمراحل. فحين نأخذ أية كلمة من مفردات القرآن الكريم، ونتتبع معانيها ومسيرتها ودلالاتها عبر العصور، فسيتضح لنا أن هذه المفردات تنفتح في كل عصر على مستجداته واشكالياته لتستوعب تلك المستجدات، وترتقي لتنفتح على معانٍ أخرى في وقت لاحق. لذا يجب النظر إلى «المفردة القرآنية» باعتبارها «مفهومًا» يضم معاني عديدة يستوعب بها عصر التنزيل، وينفتح بعدها على سائر المعاني الأخرى التي يستفيد منها الفكر الإنساني.

يختلف منهج «لسان القرآن» عن علم اللسانيَّات أو اللغويَّات، وعن علم اللسانيَّات الاجتماعيَّة في كونه يعني بمراد الله -عز وجل- فيما ورد من مفاهيم قرآنيَّة، وكيف أنَّ لها معاني أكثر عمقًا، ومتعددة الأبعاد الاجتماعيَّة والإنسانيَّة. بينما علم اللغويَّات يعني بالبلاغة وفنيَّات التعبير عن المعاني، وعلم اللسانيَّات الاجتماعيَّة يركز على تأثير المجتمع على اللغة، وتركز اجتماعيَّات اللغة على تأثير اللغة على المجتمع.

خصائص لسان القرآن كثيرة ومتعددة تناولها العلماء قديمًا وحديثًا، فهناك خصائصه البلاغية والأدبية واللغوية، والنحوية، والصرفية والبيانية، والنظمية، وخصائص الأسلوب، وغيرها من الخصائص التي جعلته معجزة وإعجاز لغوي. وهذه الخصائص تتعدد وتتنوع بتنوع زوايا النظر، وتنوع المتدبرين، وهي غير قابلة للحصر، لأن القرآن مطلق، والإنسان نسبي، وليس للنسبي الإحاطة بالمطلق، أو يحصر صفاته وخصائصه، فكل متدبر يأخذ بالخصائص والمفهومات من زاوية النظر إليه. إن بمقدور القرآن الكريم أن يتكشف عن مفاهيم جديدة تقابل إشكاليات الواقع المتغير ومفاهيمه، فكل جيل يكتشف كشوفًا جديدة، ونظريات جديدة بحكم تطور واختلاف ومناهج وسبل معارفهن، وتطور مناهج النظر والتدبر في القرآن نحو التحول من التفسير لمفرداته،

إلى التحليل والتعامل معه في إطار الجمع ما بين القراءتين (قراءة الوحي المنزل من الله تعالى، وقراءة الكون الذي أمر الله بالتفكر والتأمل فيه)، ووحدته البنائية. ولا يتعارض أو يتناقض ما تنتجه أو تكشف عنه الأجيال الجديدة مع ما تكشف لأسلافنا وتركوه لنا من إرث معرفي، وفق لسقوفهم المعرفية، وظروف وأنماط حياتهم ومعيشتهم، واحتياجاتهم وأنساقهم الثقافية والمعرفية، بل أن هذا يؤدي إلى تواصل الأجيال وتكامل وتراكم المعارف والتحليلات والتفسيرات، والبناء على بعضها البعض.[1]

الفرق بين اللسان واللغة

لم يكتشف اللسانيون الفرق بين اللغة واللسان إلا في القرن الميلادي التاسع عشر، وقد نبه القرآن المجيد إلى ذلك الفرق الدقيق في تنزيله، وفهم العرب ذلك عنه، فصاروا يقولون «اللسان العربي، ولسان القرآن، ولغة هزيل، ولغة قريش، ... إلخ». اللغة قد يتوصل إلى فهمها بدون لسان، فالإشارة لغة، والكتابة لغة، وأي شيء يصدر عنه صوت فهو لغة، وكذا الرسومات والتصاوير فأنها معبرة وحاكية، لكنها ليست ناطقة، فلا يقال لها ألسن، ولقد سمى الله تعالى الرمز والإشارة كلامًا ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزًا﴾ (آل عمران: 41)، واللغة عادة ما تكون حبيسة عادات وموروثات إقليمية، إلا أن اللسان أعم منها، فهو أوسع تعبيرًا، بدليل أن اللسان الواحد يستطيع أن يتكلم أكثر من لغة. واللسان هو الجارحة، والكلمة، والفصاحة، والنطق، والمقالة، والرسالة، وفي بعض الموضع في القرآن الكريم ورد بمعنى اللغة ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ (الروم: 22)، أي لهجاتكم ونغماتكم. واللغة كما في اللسان هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضه، أما اللسان فصاحب التعبير ومريده والدال عليه، ويمكنه أن يصيغ اللغة في أكثر من عبارة بمعان مختلفة. قد يكون المنشأ واحد واللغة واحدة وكذلك اللسان، لكنه يختلف في البيان والإفصاح، قال تعالى ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا..﴾ (القصص: 34)

من تمام أعجاز القرآن الكريم أن يتضمن من المعاني مع إيجاز لفظه ما لم تف به الأسفار المتكاثرة. أن مقدار إفهام المخاطبين به ابتداء لا يقضي إلا أن يكون المعنى الأصلي مفهومًا لديهم، فأما ما زاد على المعاني الأساسية فقد يتهيأ لفهمه أقوام، ورب حامل فقه يوجد من هو أفقه منه. فلا يمكن أن يكون فهم الأئمة المجتهدين مثل فهم

(1) طه جابر العلواني، لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب، (القاهرة: مكتبة الشروق، 2006).

عامة الناس، فهناك أئمة يستنبطون من الآية الواحدة عشرات بل مئات المسائل، وهناك من يكتفي بفهم ما يتبادر إلى ذهنه منها وهو يسير، بل إن الشخص الواحد قد يقرأ السورة فلا يخرج منها بالكثيرة، ثم يقرؤها ثانية وثالثة وعاشرًا متدبرًا فيفتح الله عليه بمعان لم يخطر على باله شيء منها في قراءته الأولى، قال تعالى: ﴿ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك﴾ (الإسراء: 20). ويظهر لسان القرآن إذا تطرقنا لبحث مفردة قرآنية وتاريخها ومعناها قبل التنزيل، ثم دراسة معناها في الاستعمال القرآني في عصر التنزيل، ثم تتبع مسيرتها بعد ذلك لتبين تنوع وثراء معانيها وفقًا للسياق التي وردت به في القرآن الكريم.[1]

من خصائص الخطاب القرآني: إذا ما قارنا بين مصطلح نص وخطاب، لتحفظنا على الأول ولجأنا إلى الآخر، وقد نضيف إليه اصطلاحات أخرى كالبيان القرآني. ونحن حين نرجع إلى القرآن الكريم لاستخلاص المعايير والمقاييس لتقويم مسارنا الفكري، فنحن لا نرجع إليه بقصد المرجعية للنصوص، ولكن من قبيل التدبر في آياته البينات. فهو ليس بالنص الذي يتجمد في قالبه فإن الآيات حية أبدًا، سياقها التلاوة المتصلة لتكون موضعًا للتدبر. أما النصوص فهي موضع للنظر العقلي المجرد تستوعبها الأبصار، أما الآيات فإنها تحمل من البصائر ما تستهدف به البصيرة لتنفذ إلى القلوب التي في الصدور. وحيث أن مضمون القرآن رسالة هدى، فإن الخطاب أداة إعلام إلى البشر وبين البشر، فهو يحمل عناصر العملية الاتصالية على النحو الذي يكفل له أداء رسالته. من عناصر الخطاب القرآني التوجه المباشر إلى المخاطب في صيغة النداء واستخدام الفعل المضارع فضلًا عن أن دوائر المخاطب تتباين وتتعدد، ما بين التخصيص والتعميم على النحو الذي لا يدع فئة أو نوعية من الناس خارج دائرة صوته، فالخطاب القرآني يتوجه إلى مستويات التلقي والإدراك الإنساني كافة ولا يقف عند مستوى دون الآخر. وهو يتوجه إلى النفس لتخريج نمط فذ من أفراد الأمة، كما يتوجه إلى الجماعة من خلال أفرادها لتخريج جماعة متميزة من الجماعات البشرية (ويؤكد على التكاتف والتعاون على المودة والرحمة). وما يستوقف الباحث في النظرة الإجمالية لهذا الخطاب هو صيغة التوجه، فكأنما يتحداه ويستدرجه ليشتبك مع قوى

(1) المرجع سابق.

وعيه. ومن أهم عناصر الخطاب القرآني أنه يوجهنا إلى مصدر هذا الخطاب على النحو الذي يوجهنا إلى خصائص هذا المصدر، وفي الوقت نفسه يضفي عليه حيوية فوق حيوية مضمون الخطاب ذاته. وإذا كانت عناصر الخطاب تشتمل على مخاطب وموضوع أو رسالة ذات محتوى معلوم، ومصدر لهذا الخطاب، فإننا يمكن أن نحلل هذه العناصر إلى مبنى ومعنى ومبعث ومقصد أو غاية، وفي أي الحالات فإننا نجد العناصر الاتصالية تتحقق وتجتمع في البيان القرآني على أكثر وجوهها إحكامًا وفعالية على النحو الذي يدفعنا إلى التعامل مع القرآن الكريم كمصدر حي وحيوي في تأصيلنا للأبعاد المنهاجية.[1]

كلمات القرآن الكريم ليست كأية كلمات عربية، وإنما هي كلمات إلهية، وذلك يجعلها ذات مستوى عال بحيث ترتقي إلى مستوى المفاهيم، وذلك الفرق الكبير بين الاستعمال الإلهي للغة والاستعمال البشري لها، فالاستعمال البشري للغة لا يحمل من ثراء المعاني ما يحمله الاستعمال الإلهي. فالكلمة القرآنية ترتقي لمستوى المفهوم، والمفاهيم دعائم تقوم عليها الحقول المعرفية، والأنساق الحضارية والثقافية، وعلى القارئ أن يدرك الفرق بين الاستعمال الإلهي والبشري لها، وبالتالي فأولى المصادر بأن يكون مصدر للتعريف بكلمات القرآن الكريم هو القرآن نفسه الذي يجعل من الكلمة الواحدة ما يشبه دعامة في بناء أو لبنة في بناء منهاجي كامل تعطي فائدتها منفردة ومستقلة، وفي الوقت ذاته تعطي جملة من الفوائد وهي في داخل البناء، فوعي القارئ بهذا الأمر وعي له أهميته قبل القراءة وبعدها، وتبرز أهميته بعد القراءة في وجوه عديدة تبدو في عملية الفهم والتعامل مع مفردات القرآن الكريم بوصفها مفاهيم. لسان القرآن من الصعب إخضاعه لأحكام الألسنيات وخاصة المعاصرة التي تنطلق من عمليات دراسة النصوص وتفكيكها وإعادة تحليلها.[2]

قد شهد الواقع تقاطعات افتعلت قطيعة بين النص والواقع، بل وذهبت لتجعل الواقع حكمًا على النص، بعد أن فرغت الواقع من أبعاده القيمية وأحكمت عزلة النص في فراغية متوهمة، فغاب المطلق أو غيب، بعد أن ضلت السبل إليه، وباتت النسبية

(1) طه جابر العلواني، منى أبو الفضل، نحو إعادة بناء علوم الأمة الاجتماعية والشرعية، (القاهرة: دار السلام، 2009).

(2) طه جابر العلواني .. معالم منهجية في التدبر والتدبير، أفلا يتدبرون القرآن، (القاهرة: دار السلام، 2010).

هي قاعدة التحكم والاحتكام في كل من النص والواقع، حتى كادت النسبية هيي قاعدة التحكم والاحتكام في كل من النص والواقع، حتى كادت النسبية تتحول إلى مطلق جديد يحل محل الغيب بسطوتها بعد أن تنفي عن عالمها سائر المطلقات.(1)

التعامل مع القرآن الكريم يكشف عن حقيقة هامة وهي أن الكثير من المضامين التي نبحث عنها يحملها السياق العام للآيات دون أن تحملها اصطلاحات صريحة، فكأن المضمون يأتي متضمنًا في سياق المعنى الإجمالي للآية، ويتم كشفه من خلال الاستدلال المنطقي أو الموضوعي. مثلًا الآيات الكريمة التي تفيد معاني الأمر والنهي كثيرًا ما تأتي دون ذكر لأي من المصطلحين فيها، ولكن مفادها يكشف من خلال الصيغة اللفظية وليس من المفاهيم، فكأن حصر الآيات التي تحمل المضامين المرادة، لابد أن تعتمد كذلك على المدخل السياقي ويكون التعامل عند هذا المستوى أكثر تركيبًا. وقد يأتي المضمون المراد في جملة آيات تشكل في سياقها الكلي وحدة موضوعية، والأمر يقتضي عند هذا المستوى من التعامل قدرًا أكبر من الإحكام والتعمق في معايير وضوابط الاستدلال حتى يمكن استيعاب مضمون السياق العام وتخريج دلالته في مجال التخصص. وبقدر بلورة الإطار المرجعي الذي ينطوي على كليات التصور في مجال التخصص تكون القدرة في التعامل عند هذا المستوى.

القراءات التأويلية في النسخ وشرعنة العنف «الخطاب البشري»

هل يفرض السيف عقائد؟! السيف لا يأخذ من الناس إلا قوالبهم، أمّا القلوب فلا يخضعها إلا الإيمان، والله تعالى لا يريد قوالب، إنما يريد قلوبًا. قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ* إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (الشعراء: 3-4) فإنِ أراد سبحانه قَهْر القوالب والقلوب على الخضوع، بحيث لا يستطيع أحد أنْ يتأبَّى على الإيمان ما وُجد كافر، وما كفر الكافر إلا لما أعطاه الله من منطقة الاختيار؛ فالحق سبحانه يريد منّا قلوبًا تحبه سبحانه وتعبده؛ لأنه سبحانه يستحق أنْ يُعبد. هذا في معنى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ...﴾ (العنكبوت: 46) ونحن لا نحمل السيف في وجه هؤلاء؛ لأن السيف ما جاء إلا ليحمي اختيار المختار، فلي أنْ أعرض ديني، وأنْ أُعلنه وأشرحه، فإنْ منعوني

(1) طه جابر العلواني، منى أبو الفضل، نحو إعادة بناء علوم الأمة الاجتماعية والشرعية، مرجع سابق.

من هذه فلهم السيف، وإنْ تركوني أعلن عن ديني فهم أحرار، يؤمنون أو لا يؤمنون. إنْ آمنوا فهذا حسن، وإنْ لم يؤمنوا فهم أهل ذمة، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، ويدفعون الجزية نظير ما يتمتعون به في بلادنا، وعليهم ما علينا، وما نُقدِّمه لهم من خدمات.[1]

عند استقراء كتب الناسخ والمنسوخ، أنّ عدد الآيات المنسوخة بالآيتين (5 و29) من سورة التوبة يرتفع كلما تقدمنا في الزمن إلى فترة الإسلام المبكّر. وإضافة إلى العامل الزمني نقف على وجه آخر من وجوه الاختلاف بشأن المسألة نفسها يعود إلى المواقف الفردية، حيث نجد من الفقهاء والمفسرين وسائر المعتنين بالقرآن وعلومه، من آفاق مختلفة ومن عصور متفاوتة، مَن يتفقون على عدد الآيات المنسوخة بآية السيف.

المنسوخ	الناسخ	المصدر
10 آيات	آيتا التوبة 9/ 5-29	قتادة (118هـ)
7 آيات	آيتا التوبة	الزهري (124هـ)
12 آية	آيتا التوبة/ الحج 22/ 39	النحاس (338هـ)
17 آية	آيتا التوبة/ البقرة 2/ 285	البغدادي (429هـ)
112 آية	آية السيف	ابن حزم (456هـ)
128 آية	آيتا التوبة	ابن العربي (543هـ)
101 آية	آية السيف	الكرمي (1033هـ)

وإذا نظرنا في مضمون الآيات المنسوخة من جهة معجمها وحقوله الدلالية وجدنا النتائج الآتية:

الصبر على المختلفين عقيدةً، سواء من المشركين أم من أهل الكتاب، وتحمّل أذاهم، واللين لهم، والعفو عنهم، والغفران لهم؛ وهي المعاني التي نجدها في عدد مهم من الآيات التي عُدَّت منسوخة بآيات القتال، على غرار الآيات ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ (البقرة: 109)، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (النساء: 81)، ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا ولَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيا﴾ (الأنعام:70)، ﴿ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنعام: 91)، ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: 199).

(1) محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، (القاهرة: دار أخبار اليوم إدارة الكتب والمكتبات، 1991).

الجنوح إلى السلم، والوعظ، والتذكير بآيات الله، والمجادلة بالتي هي أحسن، كما يظهر في كثيرٍ من المواقع من هذه الآيات التي صُنِّفت ضمن المنسوخ، كما هو شأن ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها﴾ (الأنفال: 61).

الدعوة إلى الانصراف عن فرض الذات واختياراتها واعتقاداتها على الغير، وعدم إكراههم على ما ليسوا به مقتنعين كما جاء في الآية ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمّا أَعْمَلُ وَأَنا بَرِيءٌ مِمّا تَعْمَلُونَ﴾ (يونس:41)، ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:99).

قصر دور الرسول على البيان والبلاغ، كما جاء في ﴿فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾ (الرعد: 40).

وتشتمل الآيات المنسوخة على أبعاد متنوعة تشترك في الانتساب إلى حقل دلالي واحد هو التسامح، التسامح الديني؛ ويتجسد سلوكيًا في الامتناع عن العمل على تغيير عقائد الناس بالشدّة والعنف، وفي الدعوة إلى ما تراه الذات «دين الحق» بالرفق واللين، وفي الاقتناع بأن الدين لله وبأن المحاسبة عليه مخصوصة به وحده، وأن اختلاف عقائد الناس ظاهرة وحقيقة قائمة أرادها الله لحكمة لا يدركها كل الناس. كما يشتمل هذا التسامح على بعد اجتماعي يتجسد سلوكيًا في احترام الناس لذواتهم أو «لتقواهم» لا لعرقهم أو لموقعهم الاجتماعي، فلا فضل لأحد على آخر إلا بالتقوى. كما يتجسد في قيمة الإحسان، الإحسان إلى ذي الحاجة بصرف النظر عن أي اعتبار، وقيمة التكافل التي تمتن الروابط الاجتماعية وتساعدها في تجاوز الاقتصار على رابطتي الدم والولاء القبلي وحدهما. هذه هي عموم الحقول الدلالية التي يرتبط بها المعجم القرآني المستخدم في الآيات التي عدّها أغلب الفقهاء والمفسرين منسوخة بآيات «القتال». أما الحقل الدلالي الغالب على معجم الآيات الناسخة، فإنه يتأسس على أفعال القتال وما جرى مجراها، وعلى «السيف»، وما يرمز إليه من دلالات العنف والقتل والحرب.

وما القول بالنسخ في هذا السياق إلا استبدال لاستراتيجية في التعامل مع المختلف تقوم على الرفق والتحمل والصبر على اختلافه والرضا به طالما أنه يجسد حكمة إلهية، باستراتيجية أخرى تبدو نقيضًا للأولى تتّخذ من «السيف» رمزًا لها وعلامة عليها. يبدو

الانتقال الذي عرفه المسلمون ودولتهم فاعلًا في مقولة النسخ، ومؤثرًا في تفعيل الآيات الناسخة على حساب الآيات المنسوخة؛ فقد شهد المسلمون، منذ الهجرة من مكة إلى المدينة، مسارًا انتقاليًا من وضع المستضعفين إلى وضع الجماعة الفاعلة، التي ما فتئت تتقوّى بوساطة الجمع بين ثلاث استراتيجيات: استراتيجية البيان: الدعوة إلى الإيمان بالموعظة الحسنة وبالتي هي أحسن، استراتيجية السياسة: وذلك عن طريق الإدارة المركزة في شخص الرسول والتدبير الموزع على الصحابة وأسياد الجماعات المنضمّة إلى الدعوة، استراتيجية الحرب: وذلك عن طريق الغزو. ولم تكن هذه الاستراتيجيات الثلاث متعارضة كما تبدو في الظاهر، ولا هي مرتبة ترتيبًا تاريخيًا كما ذهب البعض ممن فسروا ارتفاع حدة الخطاب الحربي في القرآن بالانتقال من مكة إلى المدينة، ومن ثمة بتوسع الجماعة. بل إنّ هذه الاستراتيجيات ظلت قائمة ومعمولًا بها ثلاثتها وفقًا لما تقتضيه المقامات من جهة، وطبيعة المجموعات المستهدفة بالدعوة، ونوعية ردود أفعالها من جهة أخرى، وبناء على التمييز بين الفتح عنوة والفتح صلحًا حدّد الفقهاء أحكام الذمّة.

ولم تكن مقولة النسخ وحدها آلية اتخذها أولئك الذين عدّوا أنفسهم مسؤولين عن استئناف المشروع المحمدي بعد وفاته، ومحملين برسالة نصرتها في العالمين، من أجل تحويل القرآن عن مبدأ التسامح في بعده الديني خاصّة، واعتبار هذا المبدأ منسوخًا بآيات القتال أو الجهاد؛ بل إن التأويل الذي أجراه هؤلاء على مفهومي الجهاد والقتال، والوجهة التي وجّهوهما إليها، كانا فعالين بدورهما في تثبيت هذا المسار العنيف الذي جرى إليه فهم الصحابة والتابعين، وفي جعله الفهم الوحيد المشروع والممكن الذي على سائر الأجيال اللاحقة أن تتبعه وتسير في ركبه اقتداء بالسلف الصالح. وقد نهض هذا الفهم على الربط الآلي والضروري بين الجهاد والقتال، وهو ربط تزامن تاريخيًا مع طور تحول الجماعة من أقلية مسالمة تحتاج إلى الحيلة وإلى حسن التدبير وإلى البيان بالتي هي أحسن، من أجل الإقناع بدعوتها والحمل على تبنيها والانضمام إليها مع المحافظة على وجودها، إلى جماعة ما فتئت تتكاثر عدديًا وتتدعّم بوساطة الأحلاف والسياسة والدعوة. في هذا الطور لم يعد الجهاد يعني، من بين ما يعنيه، بذل الجهد والطاقة من أجل تجاوز الحدود التي قد تحول دون الغاية، ولم يعد الجهاد سبيلًا يمكن

أن يتوسل بأكثر من آلية حتى يصل إلى غايته؛ بل أصبح الجهاد يعني بصفة قطعية القتال، قتال كلّ من يرفض الدخول تحت سلطة الدعوة/ الدولة، وهو المعنى الوحيد المستفاد من تخصيص المحدثين والفقهاء أبوابًا قائمة بذاتها في الجهاد بهذا المفهوم نفسه، وأصبحت الآلية الوحيدة في سبيل الجهاد هي «السيف». وهو ما يفسر التوجه الواسع نحو اعتبار «آية السيف» (الآية 5 من سورة التوبة) ناسخة لكل الآيات التي تنصّ على الدعوة بالتي هي أحسن، ولم يعد الجهاد طريقة من الطرق الممكنة التي تقتضيها مقامات بعينها ووضعيات لها شروطها؛ بل أصبح الجهاد الحربي المقاتل بوساطة السيف غاية في ذاته، بدليل أنه تحول في الحكم الشرعي الذي ثبّته المحدّثون والفقهاء إلى فرضٍ قد يختلفون في تصنيفه فرض كفاية أو فرض عين، لكنهم يجمعون على اعتباره كذلك.

وحتى في حال ظلت مقولة النسخ عاجزةً عن إبطال الأثر التشريعي لكثير من الآيات التي تحثّ على العفو والصفح والغفران والوعظ والمجادلة بالتي هي أحسن؛ لأن هذا القول تحول دون إثباته الشروط التي وضعها علماء القرآن من المفسرين والفقهاء فالأصوليين أنفسهم، ومن بينها خاصة القطع بأن الآية الناسخة متأخرة النزول عن الآية المنسوخة؛ إن سائر آليات التأويل تتكفل بذلك. ومن بينها آلية تستثمر التمييز بين الآيات الحكمية والآيات الوعظية أو الخبرية. فالعديد من الآيات، التي قيل إنّها منسوخة بآية السيف، لا تتوافر على شرط الأسبقية (أسبقية المنسوخ على الناسخ)، وغيرها لا يتوافر على شرط التعارض (فلا نسخ إلا في ما ثبت تعارضه مع ما يعدّ ناسخًا له)، فضلًا عن كونها آيات لا أحكام فيها حتى يكون للقول بالنسخ في شأنها معنى، على غرار الآيات التي يرد فيها إخبار بما كان بين المسلمين وغيرهم من علاقات سواء في مكة أم في المدينة، وهي آيات بعضها يحثّ على الرحمة والإحسان. وعلى الرغم من أنه يصعب الجزم بأن سورة «براءة» (التوبة) كانت من أواخر ما نزل من القرآن، ولم يأتِ بعدها سوى سورة النصر، كما هو شائع في الروايات. فإن الشك في استقامة مقالة النسخ نفسها يدعو إلى الشك كذلك في ما رُوي من كون سورة براءة كانت من آخر ما نزل في القرآن، طالما أنّ هناك من الروايات ما يذهب هذا المذهب. كما تتواتر الروايات التي تذهب المذهب إلى مخالفة الشائع من كون سورة التوبة آخر السور المدنية نزولًا،

وتظهر معها اختلافات كبيرة في الروايات حول ترتيب نزول السور والآيات تجعل من الصعب الركون إلى أي رواية أو حتى مجرد ترجيح رواية على أخرى.(1)

ثالثًا: المناهج القرآنية للتعامل مع المختلف في العقيدة

يرشدنا الله تعالى إلى مناهج التعامل مع المختلف في العقيدة، سواء في المعاملات أو آداب الحوار أو الجدال، والمفاهيم القرآنية هنا بمثابة المبادئ والقوانين الحاكمة والمنظمة للعلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، ولم يقتصر على ذكر المنتمين إلى الرسالات السماوية الأخرى، بل والكفار كذلك. فيما يلي نستعرض عدد من التفاسير المختلفة لهذه الآيات.

«التي هي أحسن»

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: 125)

يقول الله تعالى آمرًا رسوله محمدًا (صلى الله عليه وسلم) أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة، وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنّة والموعظة الحسنة، وقوله ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن الخطاب، كقوله تعالى ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم﴾ (العنكبوت: 46)، فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله ﴿فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾ (طه: 44). وقوله ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله﴾ أي قد علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه فادعهم إلى الله، ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات، فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير، عليك البلاغ وعلينا الحساب، ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ (القصص: 56)، ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾ (البقرة: 272).(2)

(1) زهية جويرو، التسامح منسوخًا والسيف ناسخًا، 2019، شوهد في أكتوبر 2022، https://bit.ly/3rqYxWc

(2) إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي أبو الفداء عماد الدين، تفسير القرآن العظيم تفسير ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد السلامة، (الرياض: دار طيبة، 1999).

وقيل «الموعظة الحسنة» أي القول الرقيق، «وجادلهم بالتي هي أحسن» كالدعاء إلى الله بآياته والدعاء إلى حججه، «إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين» أي عالم بهم فيجازيهم.(1)

يذكر الله نبيه فيقول «أُدْعُ» يَا مُحَمَّد مَنْ أَرْسَلَك إِلَيْهِ رَبّك بِالدُّعَاءِ إِلَى طَاعَته، إِلَى شَرِيعَة رَبّك الَّتِي شَرَعَهَا لِخَلْقِهِ، وَهُوَ الْإِسْلَام، «بِالْحِكْمَةِ» أي بِوَحْيِ اللَّه الَّذِي يُوحِيه إِلَيْك وَكِتَابه الَّذِي يُنْزِلهُ عَلَيْك، «الْمَوْعِظَة الْحَسَنَة» أي بِالْعِبَرِ الْجَمِيلَة الَّتِي جَعَلَهَا اللَّه حُجَّة عَلَيْهِمْ فِي كِتَابه وَذَكَّرَهُمْ بِهَا فِي تَنْزِيله. «وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَن» أي أَعْرِضْ عَنْ أَذَاهُمْ إِيَّاكَ، «إِنَّ رَبّك هُوَ أَعْلَم بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيله» أي إِنَّ رَبّك يَا مُحَمَّد هُوَ أَعْلَم بِمَنْ جَارَ عَنْ قَصْد السَّبِيل مِنْ الْمُخْتَلِفِينَ فِي السَّبْت وَغَيْره مِنْ خَلْقه، وَحَادَ اللَّه، وَهُوَ أَعْلَم بِمَنْ كَانَ مِنْهُمْ سَالِكًا قَصْد السَّبِيل وَمَحَجَّة الْحَقّ، وَهُوَ مُجَازٍ جَمِيعهمْ جَزَاءَهُمْ عِنْد وُرُودهمْ عَلَيْهِ.(2)

«ادْعُ» بمعنى دُلَّ الناس وأرشدهم، «سَبِيلِ رَبِّكَ» السبيل هو الطريق والمنهج، «الحكمة» أي وَضْع الشيء في موضعه المناسب، ولكن لماذا تحتاج الدعوةُ إلى الله حكمةً؟ لأنك لا تدعو إلى منهج الله إلا مَنِ انحرف عن هذا المنهج، ومَنِ انحرف عن منهج الله تجده أَلِف المعصية وتعوَّد عليها، فلا بُدَّ لك أنْ ترفقَ به لِتُخرجه عما ألف وتقيمه على المنهج الصحيح. فالشدة والعنف في دعوة مثل هذا تنفره، لأنك تجمع عليه شدتين: شدة الدعوة والعنف فيها، وشدة تَرْكه لما أحبَّ وما أَلِفَ من أساليب الحياة، فإذا ما سلكتَ معه مَسْلَك اللِّين والرِّفق، وأحسنت عَرْض الدعوة عليه طاوعك في أنْ يترك ما كان عليه من مخالفة المنهج الإلهي. ومعلوم أن النصْح في عمومه ثقيل على النفس، وخاصة في أمور الدين، فإياك أن تُشعِر مَنْ تنصحه أنك أعلم منه أو أفضل منه، إياك أن تواجهه بما فيه من النقص، أو تحرجه أمام الآخرين؛ لأن كل هذه التصرّفات من الداعية لا تأتي إلا بنتيجة عكسية، فهذه الطريقة تثير حفيظته، وربما دَعَتْه

(1) جلال الدين ابن أبي بكر السيوطي، جلال الدين المحلي، تفسير الجلالين، ط3، (بيروت: دار الكتاب العلمية، 2009).
(2) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (القاهرة: دار المعارف، 1961).

إلى المكابرة والعناد. وهذه الطريقة في الدعوة هي المرادة من قوله تعالى «بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ»، ويُروى في هذا المقام، مقام الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، قصة دارت بين الحسن والحسين رضي الله عنهما، هذه القصة تجسيدٌ صادق لما ينبغي أنْ يكون عليه الداعية. فيُروى أنهما رَأيَا رجلًا لا يُحسِن الوضوء، وأراد أنْ يُعلِّماه الوضوء الصحيح دون أنْ يجرحَا مشاعره، فما كان منهما إلا أنهما افتعلا خصومة بينهما، كل منهما يقول للآخر: أنت لا تُحسِن أنْ تتوضأ، ثم تحاكما إلى هذا الرجل أنْ يرى كلًا منهما يتوضأ، ثم يحكم: أيهما أفضل من الآخر، وتوضأ كل منهما فأحسن الوضوء، بعدها جاء الحُكْم من الرجل يقول: كل منكما أحسن، وأنا الذي ما أحسنْتُ. إنه الوعظ في أعلى صورة، والقدوة في أحكم ما تكون. ويقول أهل الخبرة في الدعوة إلى الله: النصح ثقيل فلا تُرْسِله جبلًا، ولا تجعله جدلًا، والحقائق مُرّة فاستعيروا لها خِفّة البيان. وكان صلى الله عليه وسلم إذا سمع عن شيء لا يرضيه من ذنب أو فاحشة في مجتمع الإيمان بالمدينة كان يصعد منبره الشريف، ويقول: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا»، ويكتفي بالتوجيه العام دون أنْ يجرحَ أحدًا من الناس.

وقوله سبحانه «وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»، والجدل مناقشة الحجج في قضية من القضايا، وعلى كُلٍّ من الطرفين أنْ يعرضَ حُجّته بالتي هي أحسن، أي في رفق ولين ودون تشنُّج أو غَطْرسة. ويجب عليك في موقف الجدال هذا ألاَّ تُغضِبَ الخصْم، فقد يتمحَّك في كلمة منك، ويأخذها ذريعة للانصراف من هذا المجلس. وقوله سبحانه «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» قد يتساءل البعض: ما علاقة هذا التذييل للآية بموضوع الدعوة إلى الله؟ يريد الحق سبحانه أن يُبيّن لنا حساسية هذه المهمة، وأنها تُبنى على الإخلاص لله في توجيه النصيحة، ولا ينبغي للداعية أبدًا أنْ يغُشَّ في دعوته، فيقصد من ورائها شيئًا آخر، وقد تقوم بموعظة وفي نفسه استكبار على الموعوظ، أو شعور أنك أفضل منه أو أعلم منه.[1]

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: 46)

(1) محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، مرجع سابق.

«وَلَا تُجَادِلُوا» أَيّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِاَللَّهِ وَبِرَسُولِهِ الْيَهُود وَالنَّصَارَى، وَهُمْ «أَهْل الْكِتَاب» إِلَّا بِالْجَمِيلِ مِنْ الْقَوْل، وَهُوَ الدُّعَاء إِلَى اللَّه بِآيَاتِهِ، وَالتَّنْبِيه عَلَى حُجَجه. وإِنْ قَالُوا شَرًّا، فَقُولُوا خَيْرًا. وفي حال حَدَّثَكُمْ أَهْل الْكِتَاب عَنْ كُتُبهمْ، وَأَخْبَرُوكُمْ عَنْهَا بِمَا يُمْكِن وَيَجُوز أَنْ يَكُونُوا فِيهِ صَادِقِينَ، وَأَنْ يَكُونُوا فِيهِ كَاذِبِينَ، وَلَمْ تَعْلَمُوا أَمْرهمْ وَحَالهمْ فِي ذَلِكَ فَقُولُوا لَهُمْ «آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَإِلَيْكُمْ» مِمَّا فِي التَّوْرَاة وَالْإِنْجِيل، «وَإِلَهنَا وَإِلَهكُمْ وَاحِد» أي وَمَعْبُودنَا وَمَعْبُودكُمْ وَاحِد «وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»، أي وَنَحْنُ لَهُ خَاضِعُونَ مُتَذَلِّلُونَ بِالطَّاعَةِ فِيمَا أَمَرَنَا وَنَهَانَا. [1]

يعلمنا الحق - تبارك وتعالى - كيف نجادل أهل الكتاب، وقبل أن نتكلم عن ألوان الجدل في القرآن الكريم نقول: ما معنى الجدل؟ الجدل: مأخوذ من الجَدْل، وهو فَتْل الشيء ليشتد بعد أنْ كان لينًا. ومن الجدل أُخِذ الجدال والجدَل والمجادلة، وفي معناها: الحوار والحجاج والمناظرة، ومعناه أن يوجد فريقان لكل منها مذهب يؤيده ويدافع عنه. فإذا كان المقصود هو الحق في الجدال أو الحِجَاج أو المناظرة فهذا الاسم يكفي، لكن إنْ دخل الجدال إلى مِراءٍ أو لجاجة، فليس القصد هو الحق، إنما أنْ يتغلَّب أحد الفريقين على الآخر، والجدل في هذه الحالة له أسماء متعددة. لذلك نلحظ أن التغلب في الجدل لا يكون لمجرد الجدل، إنما تغلُّبك لحق ينفع الغير ويُقويه ويردّه إلى حجمه الطبيعي.

والجدال يكون بين شخصين، لكل منهما رأيه الذي يألفه ويحبه ويقتنع به، فحين تجادله تريد أنْ تُخرِجه عن رأيه الذي يألف، إلى رأيك الذي لا يألفه ولم يعتده، فأنت تجمع عليه أمرين: أنْ تُخرجه عما أَلف واعتاد إلى ما لم يألف، فلا يكُنْ ذلك بأسلوب يكرهه حتى لا تجمع عليه شدتين. فعليك إذن باللين والاستمالة برفق؛ لأن النصح ثقيل وعادة ما يُظهِر الناصح أنه أفضل من المنصوح، ويقولون: الحقائق مرة، فاستعيروا لها خِفَّة البيان؛ لأنك تُخرِج خَصْمك عما أَلِف، فلا تخرجه عما ألف بما يكره، بل بما يحب.

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مرجع سابق.

والإنسان قد يُعبِّر عن الحقيقة الواحدة تعبيرًا يُكره، ويُعبِّر عنها تعبيرًا يُحب وترتاح إليه، إذن سلامة المنطق وخِفَّة البيان أمر مهم، وعلى المجادل أن يراعي بيانه، وأن يتحين الفرصة المناسبة، فلا تجادل خصمك وهو غضبان منك أو وأنت غضبان منه. لذلك يُعلِّمنا ربنا - عز وجل - أصول الجدل وآدابه؛ لأنه يريد أن يُخرِج بهذا الجدل أناسًا من الكفر إلى الإيمان، ومن الجحود إلى اليقين، وهذا لا يتأتّى إلا باللطف واللين.

ويُعلِّمنا سبحانه أن للجدل مراتبَ بحسب حالة الخَصم، فالذي ينكر وجود الله له جدل مخصوص، والذي يؤمن بوجود الله ويقول إن معه شريكًا له جدل آخر، ومَنْ يؤمن بالله ويقول سأتبع نبيٍّ ولن أتبعك له جدل آخر، والمختلفون معك من أهل مِلَّتك لهم جدل يليق بحالهم. إذن للجدل مراتب نلحظها في أسلوب القرآن، فجادل الذين لا يؤمنون بوجود إله بمسألة الخَلْق الظاهرة مثل خلق الكون والسموات والأرض، فلا يجرؤ أحد على إنكارها، حتى المشركون والملاحدة؛ لأن أتفه الأشياء في صناعاتهم يعرفون صانعها، ويُقرُّون له بصنعته، وهم أنفسهم مخلوقون ولم يقولوا إنَّا خلقنا أنفسنا، ولم يقولوا خلقنا غيرنا، فمَنْ خلقهم إذن؟ فإنْ قال معاند: فَمَنْ خلق الله؟ والحق سبحانه شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو، ولم يقُلْ أحد أنا الإله، إذن: الذين ينكرون الخالق لا حَقَّ لهم.

أما الذين يؤمنون بوجود الله، لكن يتخذون معه سبحانه شركاء، فنجادلهم على النحو التالي: شركاؤكم مع الله غَيْب أم شهادة؟ إنْ قالوا: غَيْب فإن الله تعالى شهد لنفسه بالوحدانية، وقال: أنا واحد لا شريك لي، فأين كان شركاؤكم؟ لماذا لم يدافعوا عن ألوهيتهم مع الله؟ إما لأنهم ما دروا بهذا الإعلان، وإما أنهم دَرَوا وعجزوا عن المواجهة، وفي كلتا الحالتين تنفي عنهم صفة الألوهية، فأيُّ إله هذا الذي لا يدري بما يدور حوله، أو يجبن عن مواجهة خَصْمه؟ فإنْ قالوا: شركاؤنا الأصنام والأشجار والكواكب وغيرها، فهذه من صُنْع أيديهم، فكيف يعبدونها، ثم هي آلهة لا منهجَ لها ولا تكاليفَ، وإلا فبماذا أمرتهم وعَمَّ نهتْهم؟ إذن: عبادتهم لها باطلة. ثم نسأل الذين يتخذون مع الله شركاء: أهؤلاء الذين تشركونهم مع الله يتواردون على الأشياء بقدرة واحدة، أم يتناوبون عليها، كل منهم بقدر على شيء معين؟ إنْ كانوا يزاولون بقدرة واحدة، فواحد منهم يكفي والباقون لا فائدة منهم، وإنْ كانوا يتناوبون على الأشياء،

فكلٌّ منهم قادر على شيء عاجز عن الشيء الآخر، والإله لا يكون عاجزًا. وقد رَدَّ الحق سبحانه على هؤلاء بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: 42) أي لَذهبوا إليه إما ليُعنِّفوه ويُصَفّوا حساباتهم معه، وكيف أخذ الأمر لنفسه، وإما ليتوددوا إليه ويعاونوه، وفي موضع آخر﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ...﴾ (المؤمنون: 91). إذن جادل غير المؤمنين بالحسن، وجادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن، لما يمتازون به عن غيرهم من ميزة الإيمان بالله، فإنْ تعدَّوْا وظلموا أنفسهم في مسألة القمة الإيمانية، فادعوا أن لله ولدًا أو غيره، فإنهم بذلك يدخلون في صفوف سابقيهم من المشركين، فإنْ كنا مأمورين بأن نجادلهم بالتي هي أحسن وقالوا بهذا القول، فعلينا أن نجادلهم بما يقابل الأحسن.(1)

«لا إكراه في الدين»

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: 256)

يقول تعالى ﴿لا إكراه في الدين﴾ أي لا تكرهوا أحد على الدخول في دين الإسلام، فإنه بيِّن واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونوَّر بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهًا مقسورًا. وعن ابن عباس قوله ﴿لا إكراه في الدين﴾ نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصيني، كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلًا مسلمًا فقال للنبي (صلى الله عليه وسلم) ألا أستكرههما، فإنهما قد أبيا إلا النصرانية، فأنزل الله فيه ذلك، (رواه ابن جرير والسدي). وقال ابن أبي حاتم عن أبي هلالا عن أسبق، قال: كنت في دينهم مملوكًا نصرانيًا لعمر بن الخطاب، فكان يعرض عليَّ الإسلام فآبى، فيقول «لا إكراه في الدين»، ويقول: يا أسبق لو أسلمت لاستعنا بك على بعض أمور المسلمين.(2)

(1) محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، مرجع سابق.

(2) إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي أبو الفداء عماد الدين، تفسير القرآن العظيم تفسير ابن كثير، مرجع سابق.

إن الحق سبحانه وتعالى يوضح للعباد المؤمنين ولسائر البشرية أنه «لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ»، والإكراه هو أن تحمل الغير على فعل لا يرى هو خيرًا في أن يفعله، أي لا يرى الشخص المكرَه فيه خيرًا حتى يفعله، إن الإكراه هو أن تحمل الغير على فعل من الأفعال لا يرى فيه هو الخير بمنطق العقل السليم. ولذلك يقول الحق سبحانه «لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّين» ومعنى هذه الآية أن الله لم يكره خلقه، وهو خالقهم على دين، وكان من الممكن أن الله يقهر الإنسان المختار، كما قهر السماوات والأرض والحيوان والنبات والجماد، ولا أحد يستطيع أن يعصى أمره. فيقول سبحانه ﴿لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (الرعد: 31). لكن الحق يريد أن يعلم من يأتيه محبًا مختارًا وليس مقهورًا، أن المجيء قهرًا يثبت له القدرة، ولا يثبت له المحبوبية، لكن من يذهب له طواعية وهو قادر ألا يذهب فهذا دليل على الحب، فيقول تعالى ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أي لم يضع مبدأ الإكراه، وأنا لو شاء لآمن من في الأرض كلهم جميعًا. وهو سبحانه قد جعل خلقه مختارين، وإلا لو أكرههم لما أرسل الرسل، ولذلك يقول المولى عز وجل: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: 99). إن الرسول له مهمة البلاغ عن الله؛ لأن الله لم يرد خلقه مكرهين على التدين، إذن فالمبلغ عنه لا يُكره خلقه على التدين، إلا أن هنا لبسًا، فهناك فرق بين القهر على الدين، والقهر على مطلوب الدين، هذا هو ما يحدث فيه الخلاف. «لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ» عقيدة وإيمانًا، إنما إن آمنت وأعلنت أنك آمنت بالله وصرت معنا مسلمًا، فلا بد أن تعرف أنك إن كسرت حكمًا من أحكام الإسلام نطلب منك أن تؤديه، أنت حر أن تؤمن أو لا تؤمن، لكن حين التزمت بالإيمان، فعليك مسئولية تنفيذ مطلوب الإيمان، وإلا حسب تصرفك أنه من تصرفات الإسلام، فإذا كنت تشرب خمرًا فإنك حر، عندما تؤمن ثم تشرب خمرًا، فأنت بذلك تكسر حدًا من حدود الله، وعليك العقاب. وقول الله «لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّين» علته أن الرشد واضح والغي واضح، الله يعطي الأدلة، والإنسان بعقله يمكنه أن تختار الرشد وهو طريق النجاة، والغي هو طريق الهلاك.(1)

(1) محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، مرجع سابق.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: 99)

يقول تعالى: «ولو شاء ربك» لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود: 118)، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (الرعد: 31)، ولهذا قال تعالى: «أفأنت تكره الناس» أي تلزمهم وتلجئهم، «حتى يكونوا مؤمنين» أي ليس ذلك عليك ولا إليك، وقال تعالى ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (البقرة: 272)، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص: 56)، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (الرعد: 40)، ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية: 22) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، الهادي من يشاء المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (يونس: 100).[1]

يقول تعالى «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا» أي لاضطرهم إليه، «كلهم» تأكيد لـ «جميعًا»، «أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» قال ابن عباس : كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصًا على إيمان جميع الناس؛ فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبقت له الشقاوة في الذكر الأول.[2]

يبين الحق سبحانه وتعالى أن الإيمان مطلوب من الإنسان، وهو الجنس الظاهر لنا ونحن منه، ومطلوب من جنس آخر أخبرنا عنه الله تبارك وتعالى، وهو الجن، وأما بقية الكون فمُسبِّح مؤمن بالله تعالى، والكون عوالم لا حصر لها، ولكلٍّ نظام لا يحيد

(1) إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي أبو الفداء عماد الدين، تفسير القرآن العظيم تفسير ابن كثير، مرجع سابق.
(2) ابي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي، تحقيق عبد الله بن محسن التركي، (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1935).

عنه. ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يُدخِل الثقلين، الإنس والجن، في نظام التسخير ما عَزَّ عليه ذلك؛ لكن هذا التسخير يثبت له القدرة ولا يثبت له المحبوبية. ولذلك ترك الحق سبحانه الإنسان مختارًا ليؤمن أو لا يؤمن، وهذا ما يثبت له المحبوبية إن جئته مؤمنًا، وهذا يختلف عن إيمان القَسْر والقهر، فالإيمان المطلوب من الإنسان أو الجن هو إيمان الاختيار. وأما إيمان القسر والقهر، فكل ما في الكون من عوالم مؤمن بالحق سبحانه، مُسبِّح له. فكل ما في الكون مُسبِّح لله تعالى، يسير على منهجه سبحانه ما عدا المختار من الثقلين: الإنسان والجان؛ لأن كلًا منهما فيه عقلٌ، وله مَيْزة الاختيار بين البدائل. ومن عظمة الحق سبحانه وتعالى أن خلق للإنسان الاختيار حتى يذهب المؤمن إليه اختيارًا، ولو شاء الحق سبحانه وتعالى أن يجبر الإنسان على الإيمان لَفعلَ. الحق سبحانه وتعالى شاء أن يجعل للإنسان حقَّ الاختيار وسخَّر له الكون، ومن الناس من يؤمن، ومن الناس من يكفر، بل ومن المؤمنين من يطيع مرة، ويعصي أخرى، وهذه هي مشيئة الحق ليتوازن الكون، فكل صفة خيِّرة إنْ وجد من يعارض فيها فهذا ما شاءه الله سبحانه وتعالى للإنسان.[1]

«القسط»

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة: 8)

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الممتحنة: 7) أي محبة بعد البغضة، ومودة بعد النفرة، وألفة بعد الفرقة، «والله قدير» أي على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة والمختلفة، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة، فتصبح مجتمعة متفقة، كما قال تعالى ممتنًا على الأنصار ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران: 103). وقوله تعالى: «والله غفور رحيم» أي يغفر للكافرين كفرهم، إذا تابوا منه وأنابوا إلى ربهم

(1) محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، مرجع سابق.

وأسلموا له، وهو الغفور الرحيم بكل من تاب إليه من أي ذنب كان. ولا ينهاكم عن الإحسان إلى الذين لا يقاتلونكم في الدين كالنساء والضعفة منهم أن تبروهم أي تحسنوا إليهم، وتقسطوا إليهم أي تعدلوا.(1)

يحب الله الْمُنْصِفِينَ الَّذِينَ يُنْصِفُونَ النَّاس، وَيُعْطُونَهُمْ الْحَقّ وَالْعَدْل مِنْ أَنْفُسهمْ، فَيَبَرُّونَ مَنْ بَرَّهُمْ، وَيُحْسِنُونَ إِلَى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ.(2)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: 8)

يقول تعالى مذكرًا عباده المؤمنين نعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته على متابعته ومناصرته ومؤازرته، والقيام بدينه، وإبلاغه عنه، وقبوله منه، وقوله تعالى كونوا قوامين بالحق لله عزّ وجلّ لا لأجل الناس، وكونوا «شهداء بالقسط» أي بالعدل لا بالجور. (3)

يَعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يَا أَيّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاَللَّهِ وَبِرَسُولِهِ مُحَمَّد، لِيَكُنْ مِنْ أَخْلَاقكُمْ وَصِفَاتكُمْ الْقِيَام لِلَّهِ، شُهَدَاء بِالْعَدْلِ فِي أَوْلِيَائِكُمْ وَأَعْدَائِكُمْ، وَلَا تَجُورُوا فِي أَحْكَامكُمْ وَأَفْعَالكُمْ، فَتُجَاوِزُوا مَا حَدَّدْت لَكُمْ فِي أَعْدَائِكُمْ لِعَدَاوَتِهِمْ لَكُمْ، وَلَا تُقَصِّرُوا فِيمَا حَدَّدْت لَكُمْ مِنْ أَحْكَامِي وَحُدُودِي فِي أَوْلِيَائِكُمْ لِوِلَايَتِهِمْ، وَلَكِنْ اِنْتَهُوا فِي جَمِيعهمْ إِلَى حَدِّي، وَاعْمَلُوا فِيهِ بِأَمْرِي. ويَقُول عز وجل وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ عَدَاوَة قَوْم عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا فِي حُكْمكُمْ فِيهِمْ وَسِيرَتكُمْ بَيْنهمْ، فَتَجُورُوا عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْل مَا بَيْنكُمْ وَبَيْنهمْ مِنْ الْعَدَاوَة. «اِعْدِلُوا» أَيّهَا الْمُؤْمِنُونَ عَلَى كُلّ أَحَد مِنْ النَّاس وَلِيًّا لَكُمْ كَانَ أَوْ عَدُوًّا، فَاحْمِلُوهُمْ عَلَى مَا أُمِرْتُمْ أَنْ تَحْمِلُوهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَحْكَامِي، وَلَا تَجُورُوا بِأَحَدٍ مِنْهُمْ عَنْهُ. فَالْعَدْل

(1) إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي أبو الفداء عماد الدين، تفسير القرآن العظيم تفسير ابن كثير، مرجع سابق.

(2) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مرجع سابق.

(3) إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي أبو الفداء عماد الدين، تفسير القرآن العظيم تفسير ابن كثير، مرجع سابق.

عَلَيْهِمْ أَقْرَب لَكُمْ أَيّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِلَى التَّقْوَى، وتكُونُوا عِنْد اللَّه بِاسْتِعْمَالِكُمْ إِيَّاهُ مِنْ أَهْل التَّقْوَى، وَهُمْ أَهْل الْخَوْف وَالْحَذَر مِنْ اللَّه أَنْ يُخَالِفُوهُ فِي شَيْء مِنْ أَمْره، أَوْ يَأْتُوا شَيْئًا مِنْ مَعَاصِيه. وصَفَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ الْعَدْل بِمَا وَصَفَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ أَقْرَب لِلتَّقْوَى مِنْ الْجَوْر، لِأَنَّ مَنْ كَانَ عَادِلًا كَانَ لِلَّهِ بِعَدْلِهِ مُطِيعًا، وَمَنْ كَانَ لِلَّهِ مُطِيعًا كَانَ لَا شَكّ مِنْ أَهْل التَّقْوَى، وَمَنْ كَانَ جَائِرًا كَانَ لِلَّهِ عَاصِيًا، وَمَنْ كَانَ لِلَّهِ عَاصِيًا كَانَ بَعِيدًا مِنْ تَقْوَاهُ. وَأَمَّا قَوْله «وَاتَّقُوا اللَّه» فَإِنَّهُ يَعْنِي وَاحْذَرُوا أَيّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنْ تَجُورُوا فِي عِبَاده، فَتُجَاوِزُوا فِيهِمْ حُكْمه وَقَضَاءَهُ الَّذِينَ بَيَّنَ لَكُمْ، فَيُحِلّ بِكُمْ عُقُوبَته، وَتَسْتَوْجِبُوا مِنْهُ أَلِيم نَكَاله. إِنَّ اللَّه ذُو خِبْرَة وَعِلْم بِمَا تَعْمَلُونَ أَيّهَا الْمُؤْمِنُونَ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَفِيمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ مِنْ عَمَل بِهِ أَوْ خِلَاف لَهُ، مُحْصٍ ذَلِكُمْ عَلَيْكُمْ كُلّه، حَتَّى يُجَازِيكُمْ بِهِ جَزَاءَكُمْ الْمُحْسِن مِنْكُمْ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيء بِإِسَاءَتِهِ، فَاتَّقُوا أَنْ تُسِيئُوا.[1]

يأمر الله عباده بأن يكونوا قوامين لله، أي لأجل ثواب الله؛ قائمين بحقه، ويشهدوا من غير ميل إلى أقاربهم، وجور على أعدائهم. «ولا يجرمنكم شنآن قوم» على ترك العدل وإيثار العدوان على الحق، وفي هذا دليل على نفوذ حكم العدو على عدوه في الله تعالى ونفوذ شهادته عليه؛ لأنه أمر بالعدل وإن أبغضه، ولو كان حكمه عليه وشهادته لا تجوز فيه مع البغض له لما كان لأمره بالعدل فيه وجه. ودلت الآية أيضًا على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه، وأن يقتصر بهم على المستحق من القتال والاسترقاق، وأن المثلة بهم غير جائزة وإن قتلوا نساءنا وأطفالنا وغمونا بذلك؛ فليس لنا أن نقتلهم بمثله قصدًا لإيصال الغم والحزن إليهم؛ وإليه أشار عبدالله بن رواحة بقوله في القصة المشهورة : هذا معنى الآية. وتقدم في صدر هذه السورة معنى قوله «لا يجر منكم شنآن قوم»، وقرئ «ولا يجرمنكم» قال الكسائي: هما لغتان، وقال الزجاج: معنى «لا يجرمنكم» أي لا يدخلنكم في الجرم. ومعنى «هو أقرب للتقوى» أي لأن تتقوا الله، وقيل لأن تتقوا النار، وإذا قال الله تعالى «أجر عظيم» أو «أجر كريم» أو «أجر كبير» فمن ذا الذي يقدر قدره؟، ولما كان الوعد من قبيل القول حسن إدخال اللام في قوله «لهم مغفرة» وهو في موضع نصب؛ لأنه

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مرجع سابق.

وقع موقع الموعود به، على معنى وعدهم أن لهم مغفرة أو وعدهم مغفرة إلا أن الجملة وقعت موقع المفرد.(1)

إنّ الحق – كما علمنا – حين ينادي المؤمنين بقوله «يَا أَيُّهَآ الَّذِينَ آمَنُواْ» إنه سبحانه لم يقتحم على الناس تصرفاتهم الاختيارية لمنهجه، بل يلزم ويأمر من آمن به ويوجب عليه؛ فيوضح: يا من آمنت بي إلهًا حكيمًا قادرًا خذ منهجي. ولكن الحق حين يقول»يا أيها الناس» يريد أن يلفت كل الخلق إلى الاعتقاد بوجوده، أما من يؤمن به فهو يدخل في دائرة قوله الحق «يَا أَيُّهَآ الَّذِينَ آمَنُواْ» وهذا النداء يقتضي بأن يسمع المؤمن التكليف ممن آمن بوجوده. ونعلم أننا جميعًا عبيد الله، لكن لسنا جميعًا عباد الله. وهناك فرق بين «عبيد» و»عباد»، فالعبيد مقهورون بما يجريه عليهم الحق بما يريد، والعباد هم الذين يرضون ويكون اختيارهم وفق ما يحبه الله ويرضاه، إنهم أسلموا الوجه لله، فهم مقهورون بالاختيار، أمّا العبيد فمقهورون بالإجبار.

﴿يَا أَيُّهَآ الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ «قوام» صفة مبالغة والأصل فيها قائم، فإن أكثر القيام نطلق عليه «قوام». سبحانه لا يريد منا أن نكون قائمين فقط؛ بل يريد أن نكون قوامين، وما دمنا قوامين فلن تخلو لحظة من قيامنا أن نكون لله؛ لله توجهًا لا نفعًا، وعندما يؤدي الإنسان أي عمل لله فهو يؤديه طاعة وتقربًا لله. وإذا أراد الله من المؤمنين أن يكونوا قوامين لله، عندئذ تكون كل حركات المجتمع الإيماني حركات ربانية متساندة متصاعدة، وإذا كانت حركات المجموع الإيماني متساندة فسوف تكون النتيجة لهذه الحركة سعادة البشرية؛ فالإنسان إذا ما كان قوامًا فهو قوام لنفسه وللآخرين. والمراد أن نكون مداومين على قيامنا في كل أمر لله، ولا تعتقد أيها المؤمن أنك تعامل خلق الله، إنما تعامل الله الذي شرع لك ليضمن لك ويضمن منك، فأنت إن طولبت بالأمانة، فقد طولب كل الناس بالأمانة فيما هو خاص بك لا بغيرك، وحين ينهاك الله عن الخيانة فقد أمر الحق الناس جميعًا بالانتهاء عن الخيانة لك.

(1) ابي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي، مرجع سابق.

إذن إن نظرت إلى تكليفات الله لوجدتها لصالحك أنت فلا يظنن ظان أن الدين إنما جاء ليقف أمام نفسه هو، فالدين وقف أمام النفس لدى الناس جميعًا، فحين يأمرك: ألاّ تمد يدك إلى مال غيرك فأنت واحد من الناس، وفي هذا القول أمر موجه لكل الناس أي لا تمدوا أيديكم إلى مال فلان لتسرقوه، فانظر إلى أن الحق حين شرع عليك شرع لك، ولذلك يجب أن يكون كل قيامك لله سبحانه. وحين يقول سبحانه «كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِالْقِسْطِ» يعلمنا ألا نضيع مجهودنا هباء، بل نوجه المجهود للعمل ونقوم به لوجه الله، لأنه سبحانه لا ينسى أبدًا جزاء عبده، وهو الذي يرد كل جميل. وكلمة «القسط « تأتي منها اشتقاقات كثيرة، وهي من الألفاظ التي قد تدل على العدل وقد تدل على الجور، وهي من الألفاظ التي تستعمل في الشيء وفي نقيضه، وهذا من محاسن اللغة، ويتطلب ذلك أن يمحص السامع الكلمة، ويتعرف على معناها بما يتطلبه السياق. «قَسَطَ» معناها «عدل»، والفعل المضارع لها هو يقسط، والمصدر «قِسطا»، ومرة يكون المصدر «قُسوطًا»، والمصدر هو الذي قد يحول المعنى من العدل إلى الجور، فالقِسط بمعنى العدل. وقَسَطَ يَقْسِطُ قُسُوطًا أي جار وظلم، هنا نجد الفعل يأتي بالمعنى وضده؛ حتى يمتلك السامع اليقظة والفطنة التي تجعله يعرف التمييز بين معنى العدل ومعنى الجور. وحين نقول «أقسط» فإنها بمعنى عدل، وهنا نتنبه إلى أن هناك فرق بين عَدْلٍ يأتي من أول الأمر وذلك هو القِسط، وهناك حكم ظالم يحتاج إلى حكمٍ آخر يزيل الظلم، وذلك الذي نستعمل له «أقسط» أي أزال الظلم، فكأن جورًا كان موجودًا وأزاله الحكم، فالقِسط -إذن- هو العدل الابتدائي.

يقول الحق «شُهَدَآءَ بِالْقِسْطِ» أي شهداء بالعدل، والحق يقول «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» و «المقسطين» هي جمع «مُقسط» من أقسط أي أزال الظلم والجور، إذن فالذي يرجح المعنى هنا سياق الكلمة ومصدرها. «وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ» أي لا يحملنكم بغض قوم على ألا تعدلوا فتعتدوا عليهم، فمن له حق يجب أن يأخذه، وإلا سيكون البغض لصالح عدوكم، وبغض المؤمن إذا حمله على اتباع هواه سيكون لصالح العدو؛ لأن الله سيعاقب المؤمن لو أدخل الهوى والبغض في إقامة الميزان العادل. فتحكيم البغض والعِداء والهوى يكون لصالح الخصوم؛ لذلك لا

يحملنكم أيها المؤمنون شنآن -أي بغض- قوم على ألا تعدلوا. ويضيف الحق «اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ» والعدالة حين تُطلب مع الخصم هي تقريع لذلك الخصم لأنه خالف الإيمان. أقرب إلى أي تقوى؟ أقرب إلى تقوى المؤمن؟ أم أن الخصم يكون أقرب إلى التقوى حين يرى المؤمن مقيمًا للعدل والحق، فلعله يرتدع نفسه ويقول: إن الإيمان قد جعل هذا المسلم يتغلب على البغض وحكم بالحق على الرغم من أنه يعلم أنني عدو له. ويذيل الحق الآية بقوله «وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» فهو -سبحانه- الخبير بما نعمل، وإياك أيها المؤمن أن تصنع ذلك لشهرة أن يُقال عنك إنك رجل حكمت على نفسك، ولكن اعمل من أجل الله حتى وإن كان الموقف يستحق منك الفخر.